صحافتنا تنحدر

بالأمس خرج الاستاذ فؤاد صرّوف من ميدان العمل العلمي ، ميدان الخلق والحقيقة ، وطلق ميدان الأدب والفلسفة الى ميدان آخر ، هو ميدان صحيفة أمريكية تعمل للناحية التجارية ، وتبعه في ذلك محمود شاكر الاديب المعروف مؤلف كتاب المتنبي ، وهو بحث قد أكبّ عليه صديقنا الاديب فألبسه من أدبه وفكره حلة قشيبة زادت الى ثروة الأدب زيادة تذكر ، ترك هذا الميدان الى الميدان الأمريكي ، ميدان الدببة التي تدخل للفنادق ، وتربية الاسماك في البرك والمستنقعات ، وقصص البحر وما أدراك ما البحر ، والطائرات الساقطة والصواريخ المنقضة . فكان خروج ذاك العالم وهذا الأديب من ميدان العمل الجدي إنتكاساً لحركة العلم وحركة الأدب في مصر والشرق .

ورأينا كبار كتّابنا مثل صديقي احمد أمين بك وصديقي الاستاذ عباس محمود العقاد وغيرهما من كبار الكتّاب والمؤلفين ينزلون عن عليائهم وعن السماوات التي تحلّق فيها أفكارهم ، وقد بلغوا من النضج العقلي ودرجوا الى منازل الحكمة العالية ، بعد صبر طويل وتجربة مع الزمن واحداث الزمن ، ينفقون من وقتهم الثمين العزيز على العلم وعلى الأدب ، ليسطروا ما يوافق مزاج الجمهور في صحف لا تمت الى العلم بسبب ولا تتصل بالأدب ولا ترتبط بالفلسفة أو الدين بأوهى رباط . إذن فالصحافة التجارية تنحدر وتحاول أن تجذب إليها عظماء الكتّاب والمفكرين ، تتخذ من أسمائهم التي ينوها بأعمالهم وعصارات قلوبهم ودمائهم الزكية وأعمارهم الطويلة بإذن الله ، سبيلاً الى كسب مادّي من طريق إرضاء الجماهير الجاهلة السابحة في ظلمات الشهوات الخسيسة والنزوات القذرة ، والإنعراف عما هو خيرٌ الى ما هو شرٌّ ، وبئس للظالمين بدلاً .

ورأينا أستاذاً عالماً كبيراً هو صديقنا الأستاذ أحمد زكي بك الكيميائي المعروف يتولى تحرير مجلة الهلال بعد أن انحدرت من عليائه المرحوم جورجي زيدان الى مستوى

الصحافة الأمريكية الرخيصة ، صحافة الجماهير وما الى الجماهير ، وقد نرى الى جانب هذا أن صحور العلم والأدب ، تلك الصخور الصلدة التي مثلتها الصحافة الجدية في ما مضى من الزمن ، وقد دكها أمثال صروف وجورجي زيدان وأحمد لطفي السيد والمنفلوطي وعبي يوسف ومصطفى كامل وفريد وجدي أنطون وسركيس وشميل وغيرهم ، وقد أخذت تتحات وتتفصل جزئياً لتصير رمالاً تذريها الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً .

ظاهرة من الظاهرات التي تقض مضاجع الذين يؤمنون في الأمم خيراً ، ويودون لو أن جماهير هذه الأمم تخرج من جهالاتها إلى رحاب العلم وميادين الأدب والفلسفة ، لا ان تخرج من جهلها الى ميادين الروح الامريكية التي غزت أسواق الأدب في مصر . وغزت بقية الشرق من طريق مصر .

أستغفر الله . أقول الروح الأمريكية تخصيصاً لا اطلاقاً . وإذا قلت الروح الأمريكية فاني أعني بها الروح الهفافة المائعة التي تعمل في تلك البلاد إلى جانب الصناعة والفن والأدب العالي والفلسفة الثابتة وإلى جانب القوة وقبلة القوة ، لا الى جانب الجهل المطبق والأدب الرخيص ، فتزيدنا جهلاً ، وتروج لما رخص من الأدب على ما في أدبنا من رخص وتفاهة وتصرفنا إلى الهزل دون الجد ، وإلى الحكاية دون الأدب ، والى القشور دون العلم بل الى الهاوية التي تحفرها هذه الصحافة تحت أقدام الأمم العربية جميعاً .

يقول المتجرون بالأدب والعلم والفلسفة : إن الجماهير تطلب ذلك . آمنّا معكم وصدّقنا أن الجماهير تطلب هذه الألوان الرخيصة . ولكن أين نفوسكم وأين ثقافتكم وأين رسالتكم التي تؤدونها لهذا الجيل وللأجيال المقبلة ؟ آمنّا وصدقنا أن الجماهير لا ترتفع لأكثر مما تعطونها من مادة ، آمنّا وصدقنا أنّ الجماهير قد تطلب ما هو أرخص مما تعطون في صحفكم ، ولكن هل بدا لكم أن الجمهور كائن أصم أبكم أعمى مجنون لا ينفع فيه التعليم ولا تفيد فيه الثقافة ، وأنه كسائمة الحيوان ان لم تجد حشيشاً تأكله ، أكلت الروث والجيف . آمنّا وصدقنا أن الجمهور في حاجة الى التعليم والارشاد ، فهل تثقفه بمقال في جدال ملك حول طربوش أو قصص في صوره ، وغير ذلك مما تنثني له النفس وتروح حسرات على الأدب والعلم وعلى الجمهور الذي لا يجد إلاّ ما تأكل السائمة من الحيوان إذا افتقدت غذاءها الطبيعي فلم تجده ؟

ولعلك تنظر في مجلة كالهلال في عهدها الجديد ، وهي المجلة الثقافية التي أنفق فيها

منشؤها الأول المرحوم أستاذنا جرجي زيدان ما أنفق من جهد وقوة وعنفوان وعلم وأدب وقصص ، فترى مقالاً كتبه طبيب من أطبائنا المعروفين تحت عنوان يضحك الثكلى. أتدري ما هو ؟ أنظر صفحة ١٤٣ من العدد الأول « في الثوب الجديد » الذي شعاره « الى الأمام » تجد رؤوساً كبيراً وبلغط العريض « الجسم السليم في الأنف السليم » أليس هذا بمثابة قولك « الفيل الكبير في الخرطوم الصغير » أو قولك « الحية العظيمة في الناب الثمين » أو قولك « العقرب الكبير في الحمة القميئة » . أرأيت في عمرك الطويل أو القصير مثل هذا الاحتقار لعقول الناس ، أو على حد قول تجار الادب « غش الجمهور » . أرأيت جسماً في أنف أو فيلاً في خرطوم أو حيّة في ناب أو عقرباً في حمة ؟ أرأيت كبيراً يتضمنه صغير ؟ أرأيت كُلاً يتضمنه جزء ؟ إن لم تكن قد رأيت فانظر في العدد الأخير من الهلال تر المعجزة التي لم يدّعها نبي من الأنبياء ولا دعيّ من الأدعياء.

كل هذا ينشر للجمهور ، ومن هو هذا الجمهور ؟ هو جملة المتعلمين في جامعة فؤاد وجامعة فاروق والجامعة الأزهرية والمعاهد الثانوية والمدارس الاخرى مضافاً إليهم قلة لا يعتد بها من الذين لا يحسنون القراءة . هذا هو الجمهور الواطئ الأصم الذي يتجر هؤلاء بصحافته العلمية والأدبية ، ويملؤون من ماله جيوبهم ، ثم يرمونه بالغفلة ضاحكين ، وكل هذا ينشر باسم عالم من علمائنا وفذ من أفذاذنا ، ولا حول للأدب ولا العلم ولا للفن الرفيع أمام سلطان المال في زمان طغت فيه المادية على كل شيء حتى على الروح .

لست أدري بأي ضمير يحاول هؤلاء المتجرون بالأدب أن يحملوا الجمهور مسئوليتهم أوزارهم كاملة . يقولون إن الجمهور جاهل منصرف عن الجد إلى اللهو ، متطير من العلم كاره للأدب . كل هذا ليبرّروا أساليبهم الملتوية ويخفوا أغراضهم الكريهة .

تاجروا بالصحافة ، واتخذوا الاتجار بها مهنة . ولكن لا تتجروا بالأدب . ولا تتداولوا العلم تداول السلع الرخيصة ، ولا تموهوا على الفلسفة واقصروا عن إغراء الكتّاب بالمال ليكونوا لتجارتكم سبباً . بل اجعلوا من أموالكم حقاً معلوماً لهؤلاء الأفذاذ ليعالجوا الى جانب تجارتكم مستغلق العلم وعميق الفلسفة ورفيع الأدب ، عسى أن تعتقوا على ما تتمادون من تجارة شيئاً من الاعتبار ، وتؤدوا لهذه الجماهير التي تتهمونها

بالغفلة والجهل، وترصونها بأن نفيسة، خفية أو ظاهرة، بعض الواجب حراء ما تصبر على الكيد لها والنيل منها، وامداد نفوسها واثارة الشهوات الخسيسة في ميولها.

لقد انحدرت صحافتنا حتى كادت تكون حضيضاً. ولا مخرج لنا من هذا إلاَّ بأن تحتقر هذه التجارة وتفيد ويترفع عن المساهمة فيها كبار كتابنا وعلمائنا، إلاَّ أن يكون لهم من صفحاتها مجال تسبح فيه ملكاتهم الخصبة، ويجد فيها أدبهم الرفيع وثقافتهم الممتازة مرتعاً رحيباً ومطمأناً إلى حين.

ا : م

واجعل خيالك واقعاً أو مت عنا ...

يا قلبُ فيمَ الحبُّ أو فيمَ المنى ؟ والحبُّ كالعنقاء، لا هي أو أنا

أما المنى من غير حبٍّ في الفتى هِيَ باطلٌ لا خيرَ فيها أو عَنا

عجباً أتتبعُ الخيال وتبتغي فيه دنيَّ لكَ إذ تصدّ من الدُّنى ؟

متوثبٌ ؟ والساق جدُّ ضعيفةٍ أم طائرٌ ؟ والجنحُ مطويٌّ ثنى

فلأنت كالباني قصوراً في الهوا والقبرُ شيِّدَ في الثرى لمن بنى

فدعِ الخيالَ اذا توقف عاجزاً متلفتاً، فهو الخرافةُ والضُّنى

أو إنْ تكنْ رجلاً تحققْ منيةً واجعلْ خيالكَ واقعاً أو متْ عنا

بغداد — أديب —